من أوائل المتصوفة في بغداد

دراسة عن حياة الحارث بن أسد المحاسبي وتعاليمه

(٧٨١ - ٨٥٧ للميلاد)

تأليف مارغريت سمث

An Early Mystic of Baghdad. A Study of the life and Teaching of Harith b. Asad al - Muhasibi, by Margaret Smith, Sheldon Press, London, 1977

مراجعة الدكتور صفاء خلوصي

هذا كتاب راجعناه بالانكليزية لمجلة اسلامك ريفيو للفقيد عبد المجيد عبد الرزاق عام ١٩٥٠ ولا أعتقد أن رأينا فيه قد تغير كثيراً ، فقد طبع لأول مرة عام ١٩٣٥ وها هو ذا يظهر بطبعة ذات غلاف رقيق ، يضم ثلثمائة وإحدى عشرة صفحة من القطع المتوسط ، بما في ذلك مسرد المصادر العربية والفارسية والعبرية والسريانية والأفرنجية باللغات الثلاث : الانكليزية والفرنسية والألمانية ، وفهرس أبجدي للنقاط المهمة في الكتاب بالإضافة إلى المصطلحات الصوفية ، ولا بد من الإشارة إلى ورق الكتاب ونمط طباعته في زمن شاعت فيه الكتب ذات الورق العادي والحروف الدقيقة المرهقة للعين ، فورق كتاب المحاسبي جيد وطباعته

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ممتازة . وقد كسرت المؤلفة الكتاب على أربعة عشر فصلاً ، استهلته ببيئة المحاسبي وباكورة حياته الأولى ، فقد ولد المحاسبي في البصرة سنة ٧٨١ الميلاد وعاش ودرّس في بغداد . وقد اعترف به علماء المسلمين أستاذاً للتصوف الإسلامي في أوائل أيام نقاوته وبساطته وتدل كتاباته على أنه من عظماء المتصوفة الزهاد وأكابر الفقهاء ومع أنه كان غزير الانتاج فإن الكثير من مؤلفاته لم يطبع بعد ؛ لذلك اعتمدت الأستاذة الباحثة مارغريت سمث على مؤلفاته المخطوطة المبثوثة في مكتبات الشرق والغرب ، وكان ظهور المحاسبي توطئة لظهور الإمام الغزالي الذي جعل للتصوف مكانة عند أهل السنة ، فضلاً عن أن متصوفة العرب والفرس الذين أعقبوه كلهم عيالٌ عليه ولا سيما أولئك الذين أثروا في متصوفة المسيحية . وأهم مآثر المحاسبي كتابه المشهور : (الرعاية لحقوق الله) ؛ وبعد أن تفرغ الأستاذة مارغريت سمث من حياة المحاسبي الظاهرية تعمد إلى دراسة حياته الباطنية فتبحث في تحول المحاسبي إلى صوفي حقيقي بأعمق معاني الكلمة وتدرس مشاعره نحو الله جل شأنه ونحو جيرانه والناس الملتفين حوله ، وتخصص الفصل الثالث لمريديه وخلصائه وعلى رأسهم الجنيد والطوسي والخوّاص والسريّ السقطي وتتطرق إلى اثنين وعشرين مؤلفاً من مؤلفاته ومن بينها الرعاية والوصايا وكتاب التوهم ، والبعث والنشور ، والمكاسب والورع وآداب النفوس ومحاسبة النفوس وفهم الصلاة ، وكتاب العلم ، والتفكر والاعتبار ، وفهم القرآن ، والغيبة ؛ وعندما تسرد الأستاذة مارغريت مصادر المحاسبي تعدد بينها المحدّثين الأوائل والجيل الثاني من الثقات كالحسن البصري وسفيان الثوري وإبراهيم بن أدهم ومعاصريه كالأنطاكي وبشر الحافي وذنون المصري ، والمصادر اليونانية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والمسيحية والعبرية . وتستغرق خمساً وعشرين صفحة في بحث النظرية النفسية المحاسبي فتتطرق للباطن والظاهر والروح العلوية والسفلية والعقل وموضع المشاعر والعواطف والقصد والإرادة ونظرية المحاسبي في المعرفة . وتخصص السيدة الباحثة ثلاثة فصول متتابعة لموضوع (الفقه الزهدي عند المحاسبي) وكلها تدور حول الخالق والمخلوق وطبيعة الإثم والخطيئة وأعداء الروح وإبليس والذات والإغراء وهدفه والنفاق والكبرياء بأشكالها المختلفة والغبطة والحسد وآثام اللسان وإيهام الذات والندم والتوبة واختبار الذات وتمحيصها . أما الفصل العاشر فمحوره الفقه الأخلاقي بما في ذلك الأمل والورع والإحسان والعدل والصبر . وأبرز تعاليم المحاسبي التعبدية تتركز في أهمية الوحدة والصمت والصلاة التأملية . وبعد الفراغ من كل هذا تعرج مارغريت سمث على تعاليم المحاسبي الصوفية ، ومن ثم تجعل الفصل الثالث عشر خلاصة لتعاليم المحاسبي كافة وتدير الحديث حول تأثير المحاسبي على معاصريه وتحدثنا عن نقاده ومويديه وبالتالي عن تأثيره على من جاء بعده كالحلاج وابن سينا والسهروردي وطبقة الشاذلية من أمثال السبكي وابن حجر العسقلاني ؛ وتجد مارغريت سمث أن تأثير المحاسبي على الإمام الغزالي كان من القوة بحيث يستحق أفراد فصل خاص به هو الفصل الرابع عشر ، الفصل الختامي ، ويتشعب عندها الكلام فتستطرد إلى ابن العبري والتصوف الغربي وموسى بن ميمون والتصوف المسيحي وتوماس اكوانياس Thomas Aquinas ودانتي ؛ ولعل هذا الفصل هو أطرف ما في الكتاب وأمتعه ، ومن يقرأه يؤمن بأن المحاسبي كان أبا التصوف في العالم فمتصوفة الإسلام والمسيحية والموسوية مدينون له جميعاً على رأي الأستاذة مارغريت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

سمث ، فتوماس اكواينـاس المتوفى عام ١٢٧٤ الميلاد درس كتب المتصوفة العرب وتأثر بالمحاسبي بشكل ملحوظ عن طريق الإمام الغزالي ؛ وهذا نمط من كتابات توماس اكواينـاس يذكرنا بآراء المحاسبي وأقواله ونظرياته : يقول القديس توماس وكأنه يترجم عن المحاسبي بالحرف الواحد : « إننا نقدم لله عبادة روحانية قوامها العبادة الباطنية في العقل ، والعبادة الجسمانية التي قوامها الاخضاع الخارجي للبدن واستسلامه وفي كل أفعال العبادة يشير ما هو ظاهري إلى ما هو باطني والثاني أهم من الأول بكثير . فالعبادة الظاهرية إنما تقدم من جراء العبادة الباطنية .

وكان ريموند لل Raymond Lull الكاتالوني المتوفى سنة ١٣١٤ المعروف بالعلامة المنوّر أحد المتصوفة المسيحيين في إسبانيا الذين استوحوا أفكارهم من كتاب العرب وفقهائهم وهو الذي أسس كلية اللغات الشرقية بروما تدرّس في جملة ما تدرّس العربية والدين الاسلامي الحنيف ، يقول عنه بعض الكتّاب المحدثين : « لقد أصبح كشعلة ملتهبة تضطرم حيوية وتدعو إلى الاتجاه إلى الله وإلى التأمل وعلى الأخص إلى العمل » وأكبر الظن أن الكثير من تعاليمه ومواعظه قد استقي مما كتبه المحاسبي ومن جاء بعده . وفي استعراضه لموضوع الخطايا وعلاجهـا نجد صدّى مردداً لتعاليم المحاسبي الزهدية ، ومن أقواله المأثورة : « بين الأمل والخوف جعل الحب مقامه » وعلى لسان العاشق الإلهي يقول ـ وأقواله أصداء لما قالته متصوفة العرب ـ : « أملي في تذكري وفهمي وحبي للعدالة من أحب ورحمته وصدقتي وإحساني تكمنان في أنني أحب محبوبي أكثر من نفسي وأكثر من أي كائن سواه وصبري في خشيتي وحبي لمن أحب ، وقواي العقلية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في تذكري وفهمي وحب الشرور التي تنالني من حبيبي ، وفي عبادتي وحبي وفهمي إياه كنزي . ويقول العاشق كذلك : « أنا لاأميّز بين الأفراح والأتراح التي تبعث بها إلى » . هذا كلام المحاسبي وقد أعجب به (ريموند لل) ورددده وكأنه من بنات أفكاره . لنستمع إليه وهو يتحدث عن (الوحدة) إنه ليقول : « الوحدة سلوى ورفقة بين المحب والمحبوب ، لأن السلوى والرفقة هما وحدة القلب العاشق عندما لا يتذكر غير شخص الحبيب » .

وقد امتد تأثير المحاسبي إلى الشاعر الإيطالي دانتي فهناك الشيء الكثير من تأثير التصوف الاسلامي فيه وأبرز ما نرى ذلك في الكوميديا الإلهية ومع أن (دانتي) مدين بمعظم ما جاء به إلى ابن عربي فهناك مع ذلك آثار من التعاليم الصوفية الأولى التي سبقت ابن عربي وعلى الأخص تلك التي جاء بها المحاسبي ومن بينها فكره (المطهر) Purgatory حيث ينال الآثمون عقاباً يطهرهم مما اقترفوه وهو عقاب وقتي وليس بأزلي ، فثواب الصالحين الذين توفاهم الله من بعدما تابوا وأنابوا جنات النعيم . أما الأولياء وخيار المؤمنين فلهم فرحة الأزل برؤية ربهم الكريم وسماع صوته ،صوت المحبوب الأزلي الأبدي .

وهكذا نرى أن تأثير المحاسبي المباشر وغير المباشر في المتصوفة الذين جاؤوا بعده من مسلمين ومسيحيين وموسويين كان عميقاً بعيد المدى ؛ وقد شبه بعض الباحثين بالراهب الألماني توماس T كيمبيس Thomas A Kempis الذي عاش في القرن الخامس عشر وقد كتب في التاريخ والسير والمواعظ وأناشيد كنيسة واستنسخ الكتاب المقدس وألف عدة كتب في العبادات والطقوس الدينية ، أهمها كتابه (محاكاة المسيح) الذي نقل إلى العديد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من اللغات وظهرت له ما لا يقل عن ثلاثة آلاف طبعة ، وعلى ذلك فالمحاسبي هو توماس آكيمبيس العرب ، غير أننا نستميح السيدة مارغريت سمث العذر ونقول إن توماس آكيمبيس هو محاسبيّ الألمان ، ذلك لأن المحاسبي هو السابق والمتصوف الألماني هو اللاحق الذي يجب أن يشبه به والمحاسبي هو أول من أوضح بجلاء طريق التصوف الهادف إلى تحقيق الوحدة الروحانية مع الله ووضع أسس حتى الوجود التي أصبحت السبيل التي سلكها الكثير من المتصوفة الذين ترسموا خطاه على مر الأجيال سواء في الشرق أو الغرب .

وبعد ، فهذا هو كتاب الحارث بن أسد المحاسبي الذي بذلت فيه المستشرقة جهداً لا ينكر وتجلت فيه أنفاس أكابر المتصوفة من المستشرقين وعلى رأسهم آربرى ونكلسون الذي يُخيّل إليّ أنه هو الذي اقترح عليها هذا الموضوع يوم كان رئيساً لقسم اللغة العربية بجامعة كمبردج ، وهو الذي شجعها المضي قدماً في هذا السبيل .

اكسفورد : صفاء خلوصي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net